

الخليج العربى

الأهمية الاستراتيجية

وملامح السياسة البرتغالية

تعتبر منطقة الخليج العربى من اهم المصادر الأولى للحضارة العربية . حيث هبات للعرب منذ القدم أسباب المهارة فى الملاحة واتساع الميادين فى التجارة وكانت محط انظار الغزاة الطامعين والمستعمرين فى العصور القديمة طمعا فى السيطرة على العالم العربى والإسلامى والأفريقى . وكان للخليج العربى دور مهم فى كافة مراحل تطور الحضارة الانسانية والتاريخ الدولى عبر العصور . وفى الماضى السحيق كانت منطقة الخليج ممرا حضاريا رئيسيا فى تاريخ الشرق القديم وهو اليوم قلب السياسة الدولية ومن هنا تأتى أهمية هذه الدراسة . ولقد مضت آلاف السنين والخليج العربى ينقل حضارات الشعوب وثقافتها وليس فى تاريخ البشرية خليج أتر على المجتمعات الانسانية بقدر هذا الممر المائى الذى أمتاز بكونه مركزا لأقدم الحضارات العالمية وأكثرها أصالة .

وتتميز المنطقة الخليجية بأنها متشابهة ومتجانسة فهى بيئة صحراوية ساحلية كما أنها تشترك فى وحدة الرقعة أى ذلك الاتصال الجغرافى المستمر للمنطقة . ويحتفظ سكانها كسائر أبناء الأمة العربية - وباستثناء مجموعات المهاجرين غير العرب - بقدر كبير من التجانس فى الملامح والسمات وبدرجة مميزة فى وحدة السلالة وأصالة العروبة والوحدة الروحية الإسلامية . وكان لذلك أثره - وفى إطار الوحدة الجغرافية ووحدة التجربة التاريخية - على تجانس الأسس الاجتماعية لسكان المنطقة وفيما يتعلق بالعادات والتقاليد وكيفية الاستجابة للمؤثرات الخارجية . لذلك فإن هذه المنطقة كانت هدفا للطامعين والمستعمرين فقد تعرضت



اعداد الأستاذة نوار عبد الوهاب قاسم القيسي

لحملة الأغريق في عهد الاسكندر المقدوني ثم الرومان وبعدها أخذت الأفكار الاستعمارية الغربية تتجه صوب هذا الخليج وخاصة في عهد الاستكشافات الجغرافية التي كانت برعامة البرتغال في مطلع القرن الخامس عشر هذا القرن الذي يواكب مطلع العصور الحديثة بصفة عامة ، كما انه شهد اول حركة استعمارية اوروبية تصل الى منطقة الخليج ، ونعني بها حركة الاستعمار البرتغالي حين شهد حملات عسكرية بحرية ضمت المراكز النجارية العربية في الخليج العربي ، كما انها سيطرت على مراكز استراتيجية على ساحليه الشرقي والغربي كذلك سيطرت على أكثر جزر هذا الخليج واتخذت فيها مراكز عسكرية هجومية تشنها على المدن الآمنة على ساحليه ، ولم تزل آثار هذا الاستعمار ماثلة في قلاع ومداقعه في بعض الجزر أو المدن الساحلية كما في رأس الخيمة والشارقة .

وفي هذه الدراسة عن استراتيجية الخليج العربي والاستعمار البرتغالي سنتناول الموضوع كالآتي

- اولا : الأهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج العربي
- ثانيا : السياسة البرتغالية في الخليج العربي
- ١ - الوضع السياسي العام في منطقة الخليج العربي إبان الغزو البرتغالي
- ٢ - أساليب السياسة البرتغالية في منطقة الخليج العربي
- ٣ - أبعاد السياسة البرتغالية في منطقة الخليج العربي
- ٤ - عوامل انهيار السيطرة البرتغالية في منطقة الخليج العربي

أولا. الأهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج العربى ..

قبل البدء بالبحث عن الأطماع البرتغالية فى الخليج العربى لابد من الإشارة الى الأهمية الاستراتيجية التى تتمتع بها منطقة الخليج العربى ^(١) ، وأثر ذلك فى الميزان السياسى الدولى وتأتى هذه الأهمية فى استراتيجية الموقع الجغرافى فالعامل الجغرافى يأتى فى مقدمة هذه الأهمية ، حيث ان المنطقة تتوسط العالم القديم ^(٢) وبحكم ذلك فهي كالجسر الذى يربط دول الشرق القديم وحضاراته فقد تأثر الخليج العربى تأثراً مباشراً بحضارة وادي الرافدين. حيث يتصل من الناحية الشمالية بنهر دجلة والفرات عبر شط العرب وكانت العلاقات العراقية القديمة واسعة ومتعددة وشملت نواحي النشاط الانساني المختلفة كالثقافة والفنون والتجارة وتلك الاوضاع ادت الى تفاعل الحضارات فى المنطقة وعليه يحتل الخليج العربى موقعا فريدا او تؤلف سواحله الغربية المنافذ الطبيعية للاقاليم الداخلية فكانت اهميته تتركز فى كونه جسرا او معبرا بين الغرب والشرق وطريق مواصلات فريدا بين أوروبا والشرقين الأدنى والاقصى ومن هذا كله كان موقعه هو سبب التنافس على مر العصور بين الدول الطامعة فيه وفي ثرواته وخيراته منذ فترة مبكرة من التاريخ ^(٣) .

واشتد ذلك التنافس الاستعمارى وعلى الاخص الاوروبى منذ القرن الخامس عشر اى بعد الاستكشافات الجغرافية وبازدياد

هذه الأهمية إزداد الصراع الاستعمارى والسيطرة الأجنبية والتسابق من أجل التوسع والاستحواذ على موارده الطبيعية وجزره الغنية بالثروات الطبيعية ^(٤) .

وقد برزت أهمية الخليج العربى كطريق تجارى مهم منذ فترة بعيدة اذ كون مع المعبر البرى الذى يقع بين نطاق زاجروس - طوروس الطريق الأوسط من طرق التجارة الشرقية وقد استمر هذا الطريق يلعب دوره الهام فى نقل هذه التجارة وغيرها من الاتصالات البشرية الأخرى بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط منذ أقدم العصور الى أن تم فتح طريق قناة السويس ^(٥) . وكانت السفن العربية منذ القدم تسلك فى ابصارها وهى تنقل البضائع والثروات من الشرق الأقصى والهند طريق بحر الصين فى المحيط الهندى ثم البحر العربى فالخليج العربى حتى رأسه الشمالى جنوب العراق ومن هناك تنتقل تلك الحمولات برا عبر العراق الى حلب لموانئ البحر المتوسط ليتم نقلها الى البندقية وبقية أنحاء أوروبا ^(٦) .

وقد عبر عدد من الباحثين ورجال السياسة فى كتاباتهم وأبحاثهم عن تلك الأهمية الاستراتيجية الكبيرة التى يتمتع بها الخليج العربى ومكانتها فى التطبيق الجيوبوليتيكي للسياسة الدولية ويمكن التمحيص فيما كتبه «فيرجيريف» الذى أطلق تسمية (منطقة الارتطام والتصادم على المنطقة البينية التى هى جغرافيا بينية بموقعها فى العالم وتمثل تلك المنطقة بطبيعتها وبيئتها منطقة انتقال تجمع بين

الصفة البحرية والبرية بدرجات متفاوتة وهى استراتيجية جبهة تصادم ومن ثم أرض المعركة فيما إذا حدثت بين أى قوى (٧) .

وقد حدد فيرجريف تلك المنطقة الاستراتيجية وجعلها تشمل الوطن العربى بما فيها منطقة الخليج العربى اضافة الى مناطق أخرى غير عربية كجنوب شرقى آسيا وجزء من إيران وهذا ما يثبت بشكل تطبيقى أهمية الخليج العربى على مر الزمن منذ العصور القديمة واستمرارها حتى الوقت الحاضر حيث تعتبر منطقة الخليج العربى من المحاور الأساسية للصراع الدولى فى المنطقة العربية فهى بمثابة المجال الطبيعى الحيوى للعالم العربى إذ لا يمكن الاطمئنان على أمنه وضمان تقدمه إذا تحكم أجنبى فى تلك المنطقة .

وما من شك أن المنافسة الاستعمارية التى شهدتها المنطقة منذ القرن الخامس عشر كانت نتيجة طبيعية للتسابق بين الدول الاستعمارية لاستغلال هذا الموقع وإدراكا منها للقيمة الخطيرة والفعلية للموقع الجغرافى ولقد أدرك البرتغاليون أهمية الخليج العربى من الناحية الاستراتيجية ودور المنطقة فى السيطرة على الهند وجنوب شرق آسيا فقد ذكر القائد البرتغالى البوكريك من هذه الأهمية :-

(هناك ثلاثة مراكز للهند تعتبر المفاتيح الرئيسية لتجارة الشرق والسيادة على التجارة العالمية وهى ملقا عند مدخل مضائق سنغافورة وعدن عند مدخل البحر الأحمر والمركز الثالث هو هرمز عند مدخل مضائق

الخليج العربى وتعتبر هرمز حسب ما اعلم أهم هذه المراكز جميعها ، ولو كتب لك البرتغال السيطرة على عدن وتحصينها بقلعة قوية لأصبح سيد الموقف فى آسيا بدون منازع ولو سيطر على هذه المراكز الثلاثة فى الشرق الأوسط لأصبح سيد العالم كله كما أصبح الأسكندر قبل ذلك عندما توغل فى قلب السهول فى الكنج وأصبح بإمكانه إغلاق الأبواب المؤدية الى الشرق بوجه كل طامع فى البحار الهندية) (٨) .

ولما سبق فإن منطقة الخليج كانت تعتبر دربا فى الأزمنة القديمة ثم تحولت الى معبر للحضارات وأصبحت فيما بعد محورا للمنافسة الاستعمارية التى شهدتها المنطقة منذ القرن الخامس عشر إدراكا منها لأهميته الممتازة .

وكان لظهور البرتغاليين فى أوائل القرن السادس عشر أثر بعيد فى التاريخ السياسى للخليج العربى وأقطاره فهو من جهة يمثل بداية عهد الأطماع الأوروبية الاستعمارية ذلك العهد الذى لم ينته الى وقتنا الحاضر ورغم انسحاب بريطانيا من المنطقة .

ثانيا: السياسة البرتغالية فى منطقة الخليج العربى ..

١. الوضع السياسى العام فى منطقة الخليج العربى إبان الغزو البرتغالى ..

كان لظهور البرتغاليين فى أوائل القرن السادس عشر أثر بعيد فى تاريخ الخليج العربى وأقطاره وهو يمثل من ناحية أخرى بداية عهد الأطماع الأجنبية والاستعمار وفى

الخليج من الغزو الخارجى ، وكانت الدولة الصفوية قائمة في فارس إلا أنها لم تبد أى مساعدة لهرمز في هذه المهمة ، وفى ذلك دليل على عدم تبعية هرمز للدولة الصفوية خلافا لادعاءات بعض الكتاب الايرانيين من أن نفوذ فارس كان يمتد على طول سواحل شبه الجزيرة العربية وحتى عدن وحقيقة الأمر أن هرمز لم تكن فارسية بل كانت تضم مختلف الأجناس الاسلامية التى تسكن حول شواطئ الخليج العربى وازدانة لوجود الدولة الصفوية فى الشمال الشرقى كانت هناك الدولة العثمانية فى الشمال الغربى ولم تساهم أى من الدولتين فى مقاومة البرتغاليين قبل منتصف القرن السادس عشر وانشغلوا فى صراعاتهما المذهبية بل بلغ الأمر بالدولة الصفوية الى حد التحالف مع البرتغال للتخلص من منافسة الدولة العثمانية لها فى سواحل الخليج ^(٩) . وكان لذلك أكبر الأثر فى اضعاف المقاومة العربية فى المنطقة . اضافة الى أن تلك الانقسامات بين الدولتين العثمانية والصفوية كانت تؤدى الى ايجاد انقسام جديد بجانب الانقسامات السياسية والقبلية فى المنطقة والتى اضعفت أيضا من المقاومة الوطنية ضد البرتغال .

وفى أكثر من مناسبة كانت الدولة الصفوية تبدى استعدادا للتحالف مع دول أوروبية ضد العثمانيين ودخلت الدولتان العثمانية والصفوية فى صراعات وحروب وفى عام ١٥٣٤ كان للعثمانيين اسطول فى بغداد والموصل وتأخروا نحو خمسة عشر عاما فى تأسيس اسطولهم فى البصرة التى

هذا المجال سنبين تلك الأوضاع التى كانت تتمتع بها المنطقة فى فترة الغزو البرتغالى . منطقة الخليج العربى كانت تزخر بالمناطق التجارية لاسيما عند مدخل الخليج العربى وتعتبر سيراى من أقدم هذه المراكز التى تمتعت بهذه الشهرة لفترة أكثر من قرنين ، ونعنى بذلك منذ بداية القرن العاشر الميلادى حتى القرن الثانى عشر عندما انتقل النشاط التجارى الى مركز آخر مجاور هو هرمز ، والتى قضى عليها الغزو المغولى إلا أن تجارها لم يستسلموا لغزوات المغول وانتقلوا الى جزيرة أخرى فى مواجهتها أطلقوا عليها نفس الاسم . وتمكنوا أن يؤسسوا فيها دولة من أعظم الدول ثراء حيث أصبحت تمثل حلقة هامة فى نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب وفى الجانب الآخر فإن البندقية كانت لها نفس الأهمية فبعد سقوط بيزنطة استولت الجمهورية الايطالية على اليونان وأصبح تجارها يترددون وباستمرار على موانئ الشام وازداد طلب منتجات الشرق الأقصى واستفادت من ذلك هرمز ، وأصبح لها سمعتها الممتازة فاستطاعت أن تبسط سلطانها السياسى على أجزاء مترامية من شواطئ الخليج العربى وجزره شملت ساحل عمان حتى القطيف شمالا ودخلت جزر البحرين وجزيرة قشم فى تبعيةها كما ضمت قسما من الساحل الشرقى وهيمنت على مصائد اللؤلؤ وفرضت الرسوم الجمركية على الموانئ التابعة لها . كان ذلك وضع هرمز إبان الغزو البرتغالى للخليج وكانت هذه الدولة تتكفل بحماية

تعتبر نقطة انطلاقهم نحو الخليج وحين بدأوا بذلك كان البرتغاليون قد أكدوا سيطرتهم عليه وفي تلك الفترة كانت منطقة الخليج خالية من أى تنظيم سياسى يشبه الدولة (باستثناء عمان والتي كانت أكثر ازدهارا بالسكان وأقرب الى المجتمعات الحضرية وامتد ذلك الى عدن ايضا) واستغل البرتغاليون الأوضاع السيئة وتخلل المرافق الاقتصادية واهمال المشاريع فى مجالات الرى والسدود وطرق المواصلات وتأخر الزراعة والصناعة والفنون واستعدوا لغزوهم عسكريا واقتصاديا وبدأ عهد الامتيازات الأجنبية فى المنطقة التى تعرضت شعوبها لأفطع عوامل الاستغلال الاقتصادي واخضاع شعبها العربى لمختلف ضروب العسف والجور واصبحت هذه البقعة التى كانت تعرف بقلب الشرق أكثر المناطق تخلفا بفضل السياسات الاستعمارية والامبريالية المستغلة .

٢. أساليب السياسة البرتغالية فى منطقة الخليج العربى ..

كان الخليج وما زال محط أطماع الدول الكبرى لما له من أهمية تعاظمت فى الفترة المعاصرة ويمكن ارجاع الاطماع الأجنبية الغربية فى منطقة الخليج الى عام ١٤٩٨ عندما تمكن الملاح البرتغالى (فاسكو دى جاما) من اكتشاف الطريق الى الهند عبر رأس الرجاء الصالح وكان ذلك بمساعدة الملاح العربى أحمد بن ماجد الذى يعود أصله الى مدينة (جلفار) رأس الخيمة ، وكان ذلك الاكتشاف ايدانا بمجىء

الاستعمار الغربى (الطامع فى مناطق الشرق الى الخليج (١٠) .

ومما لا شك فيه أن الاستعمار الغربى قد اتخذ من بعض القوى المحلية وجملة الظروف المحيطة بها سلما لبلوغ مآربه وما كان بمقدور الاستعمار البرتغالى والذى قطع المسافة البحرية الطويلة من شبه جزيرة ايبيريا الى أقصى الشرق أن يبسط نفوذه بإمكانياته الذاتية التى كانت غاية فى التواضع فإذا استثنينا كون البرتغال من رواد الأمم البحرية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر فانها كانت بلدا صغير الرقعة قليل الموارد والسكان (عدد سكانها يقل عن مليون نسمة) لذلك فقد كان على القوى البرتغالية أن تتبع سياسة معينة لتنفيذ أغراضها والاستعانة بأدوات محلية بجانب ما لديها من قوة (١١) .

وقد استفاد البرتغاليون من المعلومات البحرية التى برز العرب بها فى الملاحه وصناعة السفن والتجارة البحرية وصيد الأسماك واللؤلؤ وقد نجم عن السيطرة البرتغالية على بحار الشرق تطبيق اسلوب الاحتكار الذى تميز به البرتغاليون وما عمدوا اليه من حرمان القوى الملاحية المحلية من المشاركة بنصيب فى تجارة الشرق بما اتبعوه من أساليب شاذة وقاسية فى المعاملة لذلك فان وصول البرتغاليين الى الهند يعد نهاية للعصر الذهبى للملاحه العربية والاسلامية فى بحار الشرق (١٢) .

كذلك فان افتقاد القوى المحلية للوحدة فيما بينها بسبب انقساماتها وخلافاتها ساعد على احكام السيطرة البرتغالية على

٣. ابعاد السياسة البرتغالية في منطقة الخليج العربي ..

لقد كانت التجارة بين الشرق والغرب تتبع طريقين رئيسيين طريق البحر الأحمر ومصر وطريق الخليج العربي والعراق وسوريا وكان كل من هذين الطريقين تحت السيطرة العربية ، وفي مناسبات عديدة اغلقت هذه الطرق نتيجة لمنازعات وصراعات سياسية وقد سبب ذلك أضراراً جسيمة لواردات أوروبا من البضائع الشرقية ما عدا تلك التي كانت تنقل عن طريق وسط آسيا ^(١٤) . ورغم أن فينيسيا وجنوه كانتا من الدول الأوروبية المهمة التي تاجرت مع الشرق على نطاق واسع منذ القرن الخامس عشر إلا أنها خسرت مركزها الاقتصادي الممتاز بعد استيلاء الأتراك على القسطنطينية عام ١٤٥٣م اضافة الى أن السياسة الاقتصادية للمماليك في مصر افقدت هذه المدن ما تبقى لها من أفضلية وأصبح واضحاً أن اكتشاف طرق جديدة للهند وجنوب شرق آسيا سيدر فوائد عظيمة للدول ذات الأهداف الاستعمارية وفي مقدمتها البرتغال الدولة الأوروبية الأولى ذات الأهداف الاقتصادية الاستعمارية والتجارية ليس في منطقة الخليج العربي فقط بل وفي الهند وجنوب شرق آسيا . وفي منتصف القرن الخامس عشر دعا الملك البرتغالي (دوم هنريك) الذي عرف بالملاح الدول الأوروبية التجارية للتوجه عن طريق رأس الرجاء الصالح نحو الشرق تجنباً لملاقاة الأتراك الذين كانت لهم

منطقة الخليج العربي والتي استمرت خلال الفترة ١٥٠٧م - ١٦٥٠م وتعتبر ثانی موجة استعمارية غربية على الوطن العربي بعد الحروب الصليبية للسيطرة على الأراضي المقدسة في فلسطين وحين بدأ الغزولم يكن هناك من كيان سياسي في المنطقة سوى الدولة الصفوية الناشئة ولا بد من الإشارة الى أن الغزاة البرتغاليين قد أتوا الى الشرق وهم مشبعون بالروح الصليبية وأثار حروبها المريعة من جهة والصراع مع العرب المسلمين في الجزيرة اليبيرية وشمال افريقيا من جهة أخرى ، لذا فقد انصب اهتمامهم أيضا في معاداة المسلمين ومحاربتهم لاختصاصهم وانتزاع ما في أيديهم والإمعان في إذلال الدولة الاسلامية . وشهدت فترة الحكم البرتغالي صراعا عنيفا بين عرب المنطقة وبين قادة الأساطيل البرتغالية الذين استخدموا أفظع أساليب الارهاب والقسوة لاختضاع هذه المنطقة للاستعمار الجديد الذي كان على درجة من القسوة والبشاعة ليس لها نظير فحرقوا العديد من السفن في خوري : هجره وجرمه ومسقط وقلهات وسلبوا مدن قريات ومسقط وقلهات ولجأوا لقتل الرجال والنساء والأطفال دون تمييز وبوحشية متناهية فيما حاولوا من جهة أخرى اجبار السكان العرب على التنصر ومصادرة الأسلحة وفرض الآتاوات الباهظة كل ذلك في سبيل اشاعة الرعب والارهاب بين سكان المنطقة ليحل الجيش في المنطقة وكان قدر يسير من هذه الأعمال كافيا للانباء بنوايا الغزاة واهدافهم ^(١٥) . والتي سيتم التطرق لها .

السيطرة التامة على البحر المتوسط بعد فتحهم للقسطنطينية وعلى كافة الطرق المؤدية الى وادي الرافدين والخليج العربي وآسيا الوسطى وتم ذلك في عام ١٤٩٨م حين تمكن البرتغاليون من الوصول الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح .

اذن كان الهدف الرئيسى فى التوسع البرتغالى هو الوصول الى الهند والشرق الاقصى مباشرة دون الحاجة الى توسط المسلمين والبنادقة فى نقل التجارة (١٥) والهدف من استعمار الهند هو لما كانت تتمتع به من حضارة وثراء واعتبر الخليج البوابة المؤدية الى الهند لذا كانت اهميته فى أعين المستعمر نابغة من كونه قريبا من الهند وتمكن البرتغاليون من تثبيت أقدامهم على سواحل الهند عام ١٥٠٥م حينما أسسوا بها حكومة يرأسها نائب الملك . ورغم أنهم كانوا ما يزالون فى دور بناء امبراطوريتهم بالهند فقد اتجه اهتمامهم لمناطق الخليج العربى وشبه الجزيرة العربية .

وبالرغم من القوة البحرية الهائلة التى نقلها البرتغاليون الى المحيط الهندى فانهم لم يستطيعوا أن يوقفوا حركة الملاحة العربية فى المحيط الشاسع هذا بالاضافة الى أن الحكومة البرتغالية سمحت للبحارة كأفراد بأن يمارسوا أعمال القرصنة ضد الملاحة العربية لهذا السبب واصل البرتغاليون تقدمهم لاحتلال مالتا وجزر الهند الشرقية فى الشرق الأقصى لكى يمنعوا التجار العرب من الوصول الى مناطق انتاج التوابل ذاتها . فإذن كان هدفهم إزالة الاحتكار التجارى من أيدي عرب البحر

المتوسط والخليج العربى الذين سيطروا على زمام الحركة التجارية بين أوروبا وآسيا . اضافة لذلك كان البرتغاليون مدفوعين فى حركة الاكتشاف والتوسع هذه بروح صليبية وسيطرت هذه الروح على عدد من ضباط البحرية البرتغالية وأبرزهم إفونسو البوكيرك الذى بدأ حياته فى الجيوب البرتغالية على سواحل المغرب ثم دخل الى ميدان الصراع الصليبي المتجدد فى الشرق واشترك فى حملة بحرية الى المحيط الهندى عام ١٥٠٦م ومنها استمر فى قيادة الغزو البرتغالى فى المنطقة .

اذن الاستعمار البرتغالى كان يهدف اضافة الى تحقيق اطماعه التجارية والعسكرية الى خدمة الكنيسة عن طريق بعثات تبشيرية عديدة استقرت فى الكنائس التى بنيت جنبا الى جنب مع القلاع البرتغالية فى هرمز ومسقط والبحرين كما فكر البرتغاليون فى الاستيلاء والسيطرة على منطقة باب المندب لتحقيق أهداف صليبية محضة وكذلك لتثبيط همة المقاومة الاسلامية فى الهند ، حيث أن البحر الأحمر كان أكثر اغراء للبرتغاليين من الخليج العربى لأنه يؤدى الى الأماكن المقدسة الاسلامية (١٦) ، فكان هم البرتغاليين أن يقطعوا سبل الاتصال بين دولة المماليك وبين مسلمى الهند سيما وأن المماليك استعدوا لمقاومة البرتغاليين فى المحيط الهندى ، لما لحقهم من أضرار اقتصادية نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . وعند فشل البرتغاليين فى تحقيق تلك السيطرة على هذا المنفذ ارتدوا الى الشرق ومنطقة الخليج

العربي وكانت هرمز والموانئ التابعة لها أول ما صادف البرتغاليين عند غزوهم للخليج عام ١٥٠٨ م ، وقد شرع قائد الجيش البرتغالي إفونسو البوكريك في ضرب الحصار على جزيرة هرمز لكنه اضطر الى فكه عام ١٥١٤م حين حاصروا هرمز التي لم تلبث أن استسلمت ووافق حاكمها على دفع جزية سنوية وقبول حماية البرتغاليين واقامة قلعة برتغالية على الجزيرة .

وفي عام ١٥١٥م بسط البرتغاليون نفوذهم على أغلب مدن الخليج العربي ومن ضمنها البحرين ولكن سيطرتهم على الخليج العربي لم تدم طويلا فقد أخذ نفوذهم يضعف تدريجا إذ خسروا مواقعهم على الساحل وفي عام ١٦١٢ و ١٦١٥ انهزم اسطولهم الضخم أمام الانكليز في معارك سورات (١٧) .

٤ . عوامل انهيار السيطرة البرتغالية في منطقة الخليج العربي ..

في عام ١٦٢٥م أصبح البرتغاليون أغرابا في منطقة الخليج العربي لكنهم بقوا رغم انحدارهم عن المكانة العالمية التي كانت لهم في الخليج العربي خطرا عسكريا يهدد الانكليز ومستقبلهم في الخليج . وما لبثت مقاومتهم أن انهارت اذ تم في عام ١٦٥٠م وبعد معارك شديدة اجلاؤهم عن منطقة الخليج العربي من قبل العثمانيين بل وتعقبهم حتى سواحل الهند وافريقيا الشرقية (١٨) .

وفي هذا الصدد نود أن نوضح عوامل تدهور القوة البرتغالية للخليج العربي في

نهاية القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ومن ذلك أن تغير وضع البرتغال في أوروبا كان له دور مهم في انهيار حكمهم في الخليج العربي وساحل شرق افريقيا والقارة الهندية فالبرتغال فقدت استقلالها وخضعت للتاج الاسباني عام ١٥٨٠م وأصبحت لا تعدو كونها مقاطعة اسبانية ولم تسترجع استقلالها إلا في عام ١٦٤٠م ولكن نفوذها في الخليج استمر حتى عام ١٦٢٤ دون اتصال مع لشبونه وكانت السياسة البرتغالية في الخليج في هذه الفترة تخطط من قبل القادة العسكريين بالاتفاق مع القواعد البرتغالية في الهند وعدن مما سهل على خصوم البرتغال انهاء حكمهم والسيطرة على قواعدهم وفي منتصف القرن السابع عشر لم يكن للبرتغاليين أى قاعدة عدا مستعمرتهم في جوا ، ونتيجة لذلك أخذت البرتغال بعد هذه الفترة تركيز على التجارة مع الصين وجنوب شرق آسيا وعلى التوسع في أمريكا الجنوبية .

ومن أسباب انهيار السيطرة البرتغالية الأخرى في بحر الشرق عدم قدرتها وهي الدولة المحدودة المساحة والسكان السيطرة على امبراطورية ساحلية ضخمة امتدت من لشبونه الى كاليكوت ، كما واجه الأسطول البرتغالي مقاومة عربية بطولية في كافة مواقعه وخصوصا في مسقط وفي عام ١٥٠٧ حقق حاكم هرمز الشيخ سيف الدين انتصارا ساحقا على الأسطول البرتغالي وأجبر القائد البرتغالي على قبول معاهدة اعترف فيها البرتغاليون بحكمه رغم أن الحاكم البرتغالي في الهند قد انتقم لهذا

التحدى حين ارسل عام ١٥٢٣ أسطولا كبيرا احتل هرمز وأحرقها إلا أنه مع ذلك كله فإنه لابد من الإشارة أيضا الى الدور الذي قام به اليعاربة في عمان وجهودهم في التصدي للبرتغاليين وتوحيد معظم قبائل الخليج تحت زعامتهم الدينية والسياسية فقد حقق الامام ناصر بن مرشد مؤسس أسرة اليعاربة في عمان نجاحا كبيرا في صراعه ضد البرتغاليين تمكن به من طردهم من بعض موانئ وجزر الخليج بل وانتزاع تعهد منهم عام ١٦٤٨ بدفع الجزية السنوية الى عمان واطلاق حرية الملاحة لجميع الأمم في مياه الخليج والمحيط الهندي .

ويمكن القول أن المقاومة العربية في منطقة الخليج العربي ما فتئت تجابه البرتغاليين ووقفت لهم بالمرصاد رغم ضعف امكانياتها في تلك الفترة ، وفي مقابل المقاومة العربية فإن الاحتلال البرتغالي اتسم بالوحشية المتناهية ضد السكان العرب ومحاولة اجبارهم على الارتداد عن الاسلام الى النصرانية كما سادت الفوضى والفردية في صفوف القوات البرتغالية التي كان قادتها يحاربون من أجل النهب والسلب والحصول على المكاسب الشخصية مستخدمين وسائل الرشوة والخيانة وأدى ذلك كله الى الفوضى والانهيار الاجتماعى وفقدان الفضيلة وكان ذلك من الأسباب التي ساعدت في انهيار النفوذ البرتغالي في الخليج اضافة الى تصاعد الهجمات العسكرية التركية والنشاط الذى اظهرته اساطيلها وتهديدهم لطرق المواصلات البرتغالية في الخليج العربى ومن ثم احتلال الأتراك للبحرين

واستعادتهم للبصرة (١٩) . وظهور النفوذ البريطانى وازدياد النشاط الهولندى بمعنى آخر ظهور قوتين بحريتين في المحيط الهندى في أوائل القرن السابع عشر هما الأسطول الهولندى والأسطول الانكليزى وتميز هذان المنافسان الاستعماريان بأنهما كانا أكثر إدراكا للمصالح التجارية وقد استطاعا أن يحظيا بمكانة أفضل عند الدول الآسيوية كما حدث بالنسبة لفارس . كما اتصف البرتغاليون بروح التعصب والقسوة في معاملة الشعوب الآسيوية الافريقية ولم يكثرثوا بتنظيم التجارة مع تلك الشعوب ، اضافة الى أن سياستهم كانت ترمى الى التوسع الاستعمارى بالقهر العسكرى واستغلال هذه القوة للحصول على موارد اقتصادية في حين أن القوى الاستعمارية الأخرى كالهولنديين والانكليز. حين ظهورها في أوائل القرن السابع عشر اتبعوا سياسة جديدة يقصدون التجارة فيها أولا ثم تأتى بعد ذلك القوة الحربية لحماية تلك التجارة علاوة على ذلك فان البرتغاليين لجأوا الى إجبار الشعوب المقهورة على استخراج المواد الخام بالاضافة الى اعتمادهم على العبيد أو المرتزقة من الهنود الذين كانوا يشكلون أعدادا كبيرة في حامياتهم (٢٠) .

وأخيرا فان من العوامل التى أدت أيضا لتدهور القوة البرتغالية في الخليج العربى أن ملك البرتغال كان يحتكر تجارة السلع المربحة ولم يترك مجالا للبرجوازية التى كانت أكثر نشاطا في النظام الهولندى أو الانكليزى حيث أن تأسيس البرجوازية للشركات الاحتكارية يربط مصالح عديد من

البحرى الذى تم اكتشافه حديثا فأخذت تسعى للسيطرة عليه .

والسبيل الى السيطرة على الخليج كان يعنى أن تكون الدولة المسيطرة بحرية بالدرجة الأولى وبرزت الدولة البرتغالية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وجاء استيلاء البرتغاليين على منطقة الخليج العربى عن عمد واصرار وكانوا كجند وغزاة لكى يفرضوا سيطرتهم على دوله المختلفه ، وكان ذلك جزءاً من برنامج ضخم تولى تنفيذه القائد إفونسو البوكيرك بهدف السيطرة على تجارة الهند وكان سبيل ذلك الاستيلاء على المنافذ البحرية التقليدية كالبحر الأحمر والخليج العربى وبوغان ملقا وارغام التجار على اتخاذ طريق رأس الرجاء الصالح فى سبيلهم الى البرتغال وأوروبا .

وقبل أن يستولى عليه البرتغاليون كان الخليج العربى أحد الطرق البحرية الرئيسية للتجارة الآسيوية ففيه كانت تمر بضائع الهند والصين وجزر الهند الشرقية وهى فى طريقها الى أسواق إيران وأوروبا وفى طريقها الى أسواق الهند والشرق الأقصى وعلى سواحلها قامت دول تجارية فى صورة مدن وازدهرت الحياة فيها ومنها البصرة والبحرين وسيراف وقيس وهرمز ولكنها سرعان ما كانت تذوى ثم تندثر بمرور الوقت بسبب الأحداث التى كانت تعصف بها واحدة تلو الأخرى كثورة القرامطة وسقوط الخلافة العباسية والغزوات المغولية وقيام الامبراطورية الصفوية وكان صدئ اضمحلال تلك المدن يتردد فى الفترة التى تم فيها للبرتغاليين اكتشاف طريق رأس الرجاء

الأفراد بحركات الاستعمار كذلك فان الاحتلال البرتغالى يفتقر الى وجود نظام دقيق فى البحرية فتكررت حوادث التمرد والخلافات بين كبار الضباط وأخيرا فإن مصير البرتغاليين فى الخليج العربى كان هو نفس مصير الحملات الصليبية فقد نجحت الامارات العربية فى توحيد جهودها للقضاء على القواعد العسكرية التى بناها الأسطول البرتغالى وهكذا انهارت الآمال العريضة التى كان يرمى اليها الاستعمار البرتغالى عسكريا وسياسيا ودينيا .

بعد هذا العرض نخلص الى انه لموقع الخليج العربى أثر كبير وأهمية فقد كان ولا يزال شريانا حيويا للتجارة بل يمكن اعتبار النشاط التجارى الذى يمارسه سكان هذه المنطقة العامل المباشر للنمو والازدهار لمراكز العمران التى قامت فيها . بحرداخلي عظيم الأهمية ولا يوجد بحرداخلي فى العالم له نفس الأهمية العظيمة التى يتمتع بها الخليج العربى سواء بالنسبة للجغرافيين أو المؤرخين أو رجال السياسة فالخليج العربى له فى تاريخ البشرية سجل حافل ، يرجع الى فجر التاريخ فبفضل موقعه على أحد الطرق الرئيسية بين الشرق والغرب اكتسب تلك الأهمية التى لا يعادله فيها بحر داخلي آخر .

وكان الكشف عن طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر بداية عهد جديد فى تاريخ النشاط التجارى فى حوض الخليج فمنذ ذلك الحين أخذت أنظار الدول الأوروبية تتجه اليه كمنافس للطريق

الصالح في نهاية القرن الخامس عشر ومنذ ذلك الوقت تحولت طرق التجارة الرئيسية بين أوروبا وآسيا عن الخليج العربي والبحر الأحمر الى المحيطات الجنوبية ورأس الرجاء الصالح ولم تعد الى مجراها القديم ثانية الا بعد فتح قناة السويس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وتحول مسارات التجارة عن طريق الخليج العربي في القرن السادس عشر بعد ضربة قاصمة لدول المدن القائمة على سواحل ولوانى البحر المتوسط على حد سواء مع حرمان الخليج العربي من المهمة الرئيسية التى يقوم بها كطريق للتجارة بين الشرق والغرب وبقي طوال قرن مجرد تابع من تابع المملكة البرتغالية وكانت السفن البرتغالية تسيطر سيطرة كاملة على مياهه وأصبحت هرمز كقاعدة برتغالية تتحكم في مدخله ، وتقف في وجه حركة التجارة الدولية منه واليه .

وعليه فان السيطرة البرتغالية التى امتدت على مدى القرن السادس عشر يميزها أن الخليج العربي كمر ببحرى يربط الشرق بالغرب قد أغلق تماما وأن أهميته كطريق للتجارة العالمية تدهورت تدهورا بالغا وأنه اصبح مجرد طريق مسدود وسوق محلية للتجارة البرتغالية سواء كانت تجارة البرتغال نفسها أو تجارة امبراطوريتها في جنوب آسيا .

كما تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على مسقط وصحار وهرمز والبحرين ووطدوا أقدامهم في مراكز أخرى على سواحل الخليج وبصفة خاصة في القطيف ورأس الخيمة

لكن سيطرتهم على الخليج لم تدم طويلا ، فقد أخذ نفوذهم يضعف تدريجا وخسروا مواقعهم على الساحل وفي الوقت الذى ظهر فيه البريطانيون في الخليج كان عصر البرتغاليين قد أخذ في الافول ذلك انهم كانوا قد زحزحوا من البحرين في عام ١٦٠٢ ومن رأس الخيمة في عام ١٦١٩ وفي سبيل زحزحتهم عن هرمز اتصل الشاه عباس بممثل شركة الهند البريطانية في جاسك في عام ١٦٢١ مقترحا توجيه حملة مشتركة ضد البرتغاليين وبموافقة مدير الشركة في سورات هوجم البرتغاليون في هرمز في عام ١٦٢٢ وكانت مهمة البريطانيون تحطيم الأسطول البرتغالي في مياه الخليج بينما كانت مهمة الشاه مهاجمة القلعة في هرمز ولم يمض شهران ونصف على بدء المعركة حتى سلم البرتغاليون وبذلك زحزحوا نهائيا عن الخليج .

ويمكن القول أن نتائج النفوذ البرتغالي في الخليج العربي كانت تكمن فيما يلي :

١ - محاولة البرتغاليين للسيطرة على تجارة السلع الشرقية وحجب وصولها الى مصر والشام .

٢ - تحالف البرتغاليين مع الأحباش ضد القوى الاسلامية .

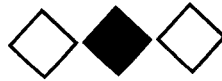
٣ - بداية التنافس بين القوى الأوروبية للسيطرة على تجارة الخليج العربي .

وخاتما ورغم كل ذلك فان الحاضر يرتبط بالماضى ولا بد لنا نحن العرب اليوم أن نستفيد من تاريخنا ونضالنا العريق ضد الأطماع الاستعمارية وأن نجعل من تلك

نفوذهم وتحقيق اطماعهم بأبخس الأثمان
تيمنا بالمبدأ القائل ليس هناك من أصدقاء
دائمين وانما مصالح دائمة .

فالخليج العربى هو المنطقة البالغة
الأهمية فى تاريخ وحاضر الأمة العربية
ومستقبلها ويؤلف محورا هاما فى السياسة
الدولية الحاضرة ، وبذلك يمكن القول بدون
تردد . ان نجاح التضامن العربى بين
أقطاره يؤلف قوة عربية هائلة تعكس أثارها
الايجابية على الموقف العربى والدولى ،
ويمكن لهذه القوة إذا أحسن استخدامها
وانتظم أمرها أن تصبح وحدها أكبر الكتل
الرئيسية فى العالم .

الدروس صورة مشرقة لمستقبلنا ، فعلى دول
الخليج العربى أن تستفيد من عبر ما حدث
فى السياسة الدولية وتجد بوضوح ان
الاعتماد على الدول الكبرى هو فى النهاية
سياسة غير مجدية والبحث عن أمنها
واستقرارها يأتى عن طريق التعاون العربى
والتضامن وبناء القوة الذاتية وتنسيق
الجهود العربية التى تهدف للتعاون
الحقيقى المخلص فقد رحل الملاح البرتغالى
وذهب الشرطى البريطانى وبات الأمر فى
العمل العربى المشترك وقد برهنت الأحداث
على خرافة الأفكار القائلة بوجود دولة أجنبية
حامية أو ضامنة لأمن الخليج العربى وانما
هناك استعمار ومستعمرون وسعى لاحتلال



المراجع

- (١) يقع الخليج العربي جغرافيا بين شبه الجزيرة العربية غربا وايران شرقا ومضيق هرمز وخليج عمان جنوبا والعراق شمالا ، وللمزيد من المعلومات حول مساحته وابعاده انظر : د. صبرى فارس الهيتى . الخليج العربى دراسة فى الجغرافية السياسية ، دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٧٩ ، ص ١٨ .
- (٢) انظر الخريطة الخاصة بالخليج العربى .
- (٣) سليم طه التكريتى ، المقاومة العربية فى الخليج العربى ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٨٢ ، ص ١١ .
- (٤) سالم سعدون ، جزر الخليج العربى ، دراسة فى الجغرافية الاقليمية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٨١ ، ص ٢٨ .
- (٥) د. ابراهيم شريف ، الشرق الأوسط ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد بغداد ، ١٩٦٥ ، ص ٢٣ .
- (٦) S.A. Morrison, Middle East Survey, S.C.M. Press Ltd, London, 1954, p. 14.
- (٧) جيمس فيرجيف ، الجغرافية والسيادة العالمية ، ترجمة : على رفاعة الأنصارى ود. محمد عبد المنعم الشرقاوى ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٢٩٧ .
- (٨) د. محمود على الداود . الخليج العربى والعمل العربى المشترك ، مطبعة الارشاد ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة ١٩٨٠ ، ص ٣٢ .
- (٩) د. جمال زكريا قاسم . الصراع العمانى - البرتغالى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، مجلة البحوث والدراسات العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، العدد العاشر ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٣٣٩ .
- (١٠) د. صدقه يحيى فاضل . الأهمية العالمية المعاصرة للخليج ودول مجلس التعاون ، مجلة التعاون ، الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربى السنة الثانية ، العدد الخامس ١٩٨٧ ، ص ٣٦ .
- (١١) على غنام . أحداث فاصلة فى احلال النفوذ الأجنبى بالخليج العربى ، مجلة الخليج العربى ، مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة ، المجلد السابع عشر العدد ٢ السنة الثالثة عشرة ١٩٨٥ ، ص ١٠ .

- (١٢) د. جمال زكريا قاسم . مصدر سبق ذكره ، ص ٣٣٩ .
- (١٣) S.B. Miles. The Countries and Tribes of the Persian Gulf, Frank Oass Co. Ltd, 1966, p. 145.
- (١٤) د. محمود علي الداود ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٨ .
- (١٥) د. جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير . دار الهلال ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٦٥ .
- (١٦) Sir Arnold T. Wilson: The Persian Gulf, Third Impression, 1959, p. 120.
- (١٧) د. محمود علي الداود . العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي ١٥٠٧ - ١٦٥٠ . مجلة كلية الآداب . جامعة بغداد ، العدد ٢ - شباط ١٩٦١ ، ص ٣٣٩ .
- (١٨) د. صبرى فارس الهيتى . مصدر سبق ذكره ، ص ٣٣ .
- (١٩) صالح اوزيران . الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربي ، مطبعة الارشاد ، منشورات مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ، ١٩٧٨ .
- (٢٠) د. صلاح العقاد ، التيارات السياسية في الخليج العربي ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٢١ .

